السينما والتحليل النفسي

عادل عبد العال

كانت الاهمية القصوى للتحليل النفسي كعلم من العلوم الاجتماعية المهتمة أساسا بالانسان وما تزخر به نفسه البشرية من أسرار وخفايا بالغة الدقة والاهمية معا هي تقريبا نقطة الانطلاق لذلك الدور الاساسي للفن كنتاج لتلك النفس البشرية وخير معبر عنها .. وقد جاءت الابحاث والدراساتالنفسية وبدأت محاولة وضع النقط على الحروف من خلال الاعمال التي ظهرت تباعا لتبحث بدورها عن طريق أو منهج للتحليل النفسي والاجتماعي ، بداية من تحليل أعمال ليونارد دافنشي الذي قام به فرويد والذي استطاع من خلاله خلق أسلوب جديد في معاملة الاعمال الفنية الجادة ذات الدلالات والايماءات ، وان كانت غير واضحة للمشاهد العادي، الى أن جاء بعد ذلك أرنست جونز وقام بتحليل « هاملت » لشكسبير كعمل من الاعمال التي اعتمدت أساسا على التحليل النفسي كموضوع رئيسي في تناولها .. ثم توالت بعد ذلك أشكال التعبير المختلفة من مسرح وشعر الى فن تشكيلي وموسيقى ... الخ . وأخيرا جاءت السينما ـ كفن سابع ـ استفاد من كل التجارب السابقة لتشترك بدورها في هذا المجال ، بل ولتتفوق على ما سبقها من فنون ولتصل الى نتائج ونظريات أمكن للمحللين النفسيين استخلاصها من خلال تلك الافلام التي تعرضت لبحث كافة أشكال التحليل النفسي بعد ذلك .

كانت أولى تجارب السينما في هذا الميدان (التحليل النفسي) الفيلم الشهير « دكتور جيكل ومستر هايد » المقتبس عن قصة للروائي الانكليزي ستيفنسون .. ونرى في هذا الفيلم رجلا ذا شخصية سوية تسيطر عليه الذات العليا (الضمير) وتهيمن على العقل الباطن وعلى العقل الواعي أيضا وتباشر عملها بتوافق تام . وهذه الشخصية السوية التي يمثلها دكتور جيكل كانت تتحول الى شخصية أخرى مختلفة ومتناقضة تماما بعد تناولها لدواء معين (المفروض انه يقوم بتعطيل الذات العليا) ، وتظهر لنا شخصية أخرى هي مستر هايد الذي يبدو بشكل غير آدمي على الاطلاق ، ويأتي بأعمال وتصرفات همجية لا يمكن لاي عاقل أن يأتي بها . ولو اعتبرنا ان هذا الدواء الذي تناوله دكتور جيكل والذي عمل على تعطيل ضميره موجود فعلا في داخل تلك الشخصية ، أي هو عبارة عن رواسب نفسية قديمة مستقرة ، فسنجد ان هذه الشخصية مصابة بمرض الانفصام ، فهناك شخصيتان تتنازعاه هما دكتور جيكل الطبيب الانسان ومستر هايد الوحش الآدمي والنقيض المباشر .. وتتبادل هاتان الشخصيتان نوبات الظهور ليتحول الرجل من شخص او العكس دون أن يشعر في أي الحالين بما كان يرتكبه حين تتقمصه الشخصية الاخرى . وحتى يمكنالوصول الى تفسير لتلك الحالة من الامراض النفسية يمكننا أن نرجع قليلا الى تقسيم فرويد للجهاز النفسي للانسان ، فهو يقسمه الى ثلاثة أقسام رئيسية هي : اللاشعور (الهو) ، والشعور (الأنا) ، والرقيب أو الضمير (الأنا الاعلى) . ويشرح فرويد هذه الاقسام الثلاثة بأن « الجزء الاول وهو اللاشعور أو العقل الباطن هو ذلك الجزء المعبر عن اللاحضارة والهمجية في الانسان ، ففيه تكمن كل أنواع الفوضى والهمجية والرغبات المكبوتة .. أما الجزء الثاني ، وهو الشعور أو العقل الواعي ، فانه هو هذا الشيء الذي يقوم بتأدية الاعمال العادية والتصرفات المثالية . أما القسم الثالث (الضمير) فانه ذلك الشيء الذي يسيطر على العقل الباطن أو اللاشعور ومنعه من تنفيذ كل ما يسيء الى النفس البشرية . الا ان اللاشعور يلجأ أحيانا الى عدة حيل للهروب من الذات العليا ليحقق أشياء لا يمكن أن يقوم بها الشعور . ومن أشهر تلك الحيل : فقدان الذاكرة ، الاغماء ، النوم ، والهفوات مثل فلتات اللسان أو القفشات غير المقصودة ، وأيضا الاسقاطات حيث يقوم اللاشعور بتفسير أعمال الغير بحسب الشخصية التي يمثلها .. ويلجأ اللاشعور كذلك للاحلام كوسيلة من وسائل الهرب » .

ويقول فرويد : « ان الرقيب أو الضمير يكون اثناء النوم أقل تحكما منه في حالة اليقظة . وبذلك تتاح الفرصة للرغبات المكبوتة في اللاشعور لتعبر عن نفسها تعبيرا صادقا الى حد كبير . وفي حالة فيلم « دكتور جيكل ومستر هايد » نجد ان المخرج قد حاول ابراز جزء من تلك الحيل التي يقوم بها اللاشعور لتعطيل الضمير وايقاظ الجزء الهمجي واللاحضاري في الانسان .

وعن الانفصام في الشخصية ، نجد في نهاية الاربعينات فيلم هيتشكوك الشهير « المأخوذ » ـ ذلك

الذي يتناول فيه الفريد هيتشكوك بأسلوبه السينمائي الذي يعتمد أساسا على التشويق والاثارة ؛ بعض وسائل اللاشعور التي تتسبب في تعطيل الضمير ، فالبطل هنا رجل يسيطر عليه احساس ما بالذنب لاعتقاده بأنه قد قام في الماضي بارتكاب جريمة قتل هو في الواقع لم يرتكبها .. ويصل هيتشكوك في هذا الفيلم الى ارقى مستوى من مستويات المعالجة والتحليل النفسي العلمي المدروس القائم أساسا على نظريات علمية ونفسية ثابتة. وبعد فيلم هيتشكوك توالت الافلام التي تتناول انفصام الشخصية ، منطلقة من انه واحد من أهم تلك الامراض النفسية المنتشرة ، اذ ان حوالي ٢٥ ٪ من مرضى النفس مصابون به ... وهذا المرض يعزل المصاب به عن العالم الخارجي ويصيبه بالتفكك المستمر البطيء في كل أجزاء شخصيته ، كما يتأثر فكره وعاطفته ، وكذلك السلوك والتصرفات جميعها .

وتحدث الاصابة بهذه الشيزوفرينيا بين الخامسة عشرة والثلاثين من العمر ، كما انه يصيب عادة الشخصيات الانطوائية أو المنغلقة على نفسها . هذا وقد علل بعض المحللين النفسيين أسباب هذا المرض وأرجعوه الى صدمة مباشرة تصيب الشخص في فترة زمنية سابقة ، وان شبح تلك الصدمة يطارد الشخصية في فترات لاحقة بشكل متقطع . ويرى هؤلاء المحللين انه لعلاج تلك الحالة يجب التركيز أولا على الصدمة لتذكير المريض بها والذي قد لا يعيرها اهتماما في بعض أنواع محددة من انفصام الشخصية الذي ينقسم كما يرى هؤلاء المحللون الى سبعة أقسام هي حسب خطورتها : الفصام البسيط وهو ذلك الذي لا يكون مصحوبا بتهيؤات أو هلوسات بدرجة كبيرة ، الفصام الحركي ، الفصام المصحوب بتوهمات ، فصام جنون المعتقدات الخاطئة ، فصام تقصي القوى العقلية ، فصام الشلل العام الجنوني ، وأخيرا الصرع وهو أخطر أنواع الفصام.

ويعتبر النوع الاول من الفصام ـ وهو ذلك الذي لا تصحبه تهيؤات أو هلوسات بدرجة كبيرة ـ أكثر أنواع الفصام انتشارا وأكثرها كذلك تناولا في السينما الروائية . فقد تناولته السينما العالمية بجميع أشكالها واتجاهاتها ووصلت فيه الى نتائج تباينت بحسب مستوى الافلام وقدرة صانعيها . فمثلا في الفيلم اللبناني « سيدة الاقمار السبعة » نرى نموذجا شديد الوضوح لحالة من حالات انفصام الشخصية النموذجية ـ فتاة مراهقة جميلة يعتدى عليها جنسيا وتهتك عذريتها وهي في بداية تفتحها واستقبالها للحياة . وتترك هذه الحادثة اثرا في نفس الفتاة تنشأ عنه عقدة نفسية تصيبها بازدواج في الشخصية تعاني منه بعد زواجها ، فنجدها حينا زوجة مخلصة لزوجها تبادله الاحترام والحب ، وحينا آخر امرأة عابثة مستهترة ترتدي زي العاهرات وتذهب الى أحد الاحياء الشعبية لتعاشر شابا غجريا هناك وتعيش معه أياما وهي جاهلة تماما بكل شيء عن شخصيتها الاولى التي تعود اليها فترجع الى منزلها وتسير سيرتها الاولى دون أن تذكر اي شيء عما حدث لها .

الا ان الفيلم رغم وجهة نظره ـ المعتمدة على أسس علمية بحتة ومدروسة ـ يفرق للاسف الشديد في الشكل التجاري الفج للسينما ، ويقدم للمتفرج جرعة جنسية صارخة ، مستغلا في ذلك تلك الدراسة النفسية التي كانت مادته الاساسية .

ويحاول بعد ذلك الفيلم المصري « بئر الحرمان » ـ المأخوذ عن قصة لاحسان عبد القدوس ـ أن يتلافى خطأ الفيلم اللبناني ، فيقدم حالة مرضية متعمقة الجذور مع شرح أسباب المرض وعلاجه وكذلك تتبع مراحل الاعراض التي يمر بها المريض . ويقدم الفيلم بطلته كشابة جميلة يقدرها الجميع ... ويحبها خطيبها ويحترمها أيما احترام ، وهي أيضا تحبه وتحترمه . الا ان هذه الفتاة تتحول أثناء الليل الى شخصية أخرى مختلفة تماما عن شخصيتها الاصلية ، فتصبح غانية مبتذلة ترتاد الحانات والشقق المفروشة ، بل وترسل أيضا لشخصيتها الحقيقية خطابات تهددها فيها بالقتل. وحينما تكتشف والدة الفتاة ذلك تعرضها على الطبيب النفسي الذي يصل بها الى أصل العقدة التي أصابتها في الصغر بسبب والدتها وحكاية خالتها التي قتلها خالها لعدم كونها عذراء ... ويستمر المحلل النفسي في علاجه للمريضة مسترشدا بأعراض انفصام الشخصية والتي كان من أبرزها في الفيلم ذلك الفقدان أو التبلد العاطفي وتلك الاضطرابات السلوكية . وكذا التعرض للهلوسة وتفكك الشخصية .

وعن قصة لاحسان عبد القدوس أيضا نرى حالة مرضية أخرى كثيرة الشبه بانفصام الشخصية ، هي تلك التي يعالجها « أين عقلي » اخراج عاطف سالم .. حيث نجد المريض هنا مصابا بمزيج من الفصام الحركي والعصاب الصدمي ، ذلك لانه دائما ما تتملكه رغبتان تتصارعان داخله ، احدى هاتين الرغبتين ناتجة عن صدمة قوية كانت قد أثرت عليه منذ زمن بعيد ، وهنا يتعرض ذلك المريض لاعراض مثل تلك التي تحدث عقب الكوارث النووية والحروب عامة . وتكون النتائج المباشرة لتلك الصدمة احساسا بالتوتر المؤلم واضطرابات في النوم ، كما تتكرر اعراض الصدمة أثناء النوم وتأتي على شكل أحلام تسمى بأحلام العصاب الصدمي حيث يستعيد الحالم بلا انقطاع صورة الصدمة التي تسببت في مرضه .

ويرى فرويد ان هذه الاحلام تخضع لآلية التكرار، كما تتكرر الهواجس والاضطرابات حيث يكون الغرض ان يتولد لدى الشخص حالة من القلق تسمح له بالهروب من قبضة الاثارة التي عاناها . وذلك القلق هو

الذي ادى غيابه الى ظهور العصاب الصدمي . وفي حالة الدكتور توفيق التي عالجها فيلم « اين عقلي » نجد ان الصدمة التي اصابته هي اكتشافه لعدم عذرية عروسه ليلة الزفاف مما يؤدي به الى محاولة البحث عن ذلك الشيء المفقود في مكان آخر ، الا انه لا يجده فتنتابه صدمات تؤثر على عقله واعصابه وتنتابه كذلك احلام العصاب الصدمي ويعاني من احساس مؤلم بالتوتر العصبي منشأه الصدمة .

وحين يتمكن المحلل من الوصول بالمريض الى اصل العقدة أو الصدمة يكون طريق العلاج قد اصبح سهلا ، وعلى الطبيب ان يعيد تركيب شخصية هذا المريض الذي من المؤكد انه لا يدري شيئا عن تصرفاته اللاادراكية .

وفي محاولة البحث عن الجديد دائما طرقت السينما شكلا آخر من اشكال التحليل النفسي ، الا وهو ذلك الذي يبحث في حالة مريض النورستانيا أو الضعف العصبي ، تلك التي عولجت في الفيلم المصري «السراب» المأخوذ عن قصة لنجيب محفوظ . ونجد بطل الفيلم هنا شابا متعلقا بوالدته تعلقا شديدا لدرجة النوم معها في سرير واحد حتى وهو في سن المراهقة والشباب ، مما يؤدي به الى حالة من حالات الكبت اللاشعوري التي تتسبب في اصابته بمرض النورستانيا .

ويرى فرويد ان هذا المرض هو نتيجة مباشرة لممارسة العادة السرية وما تحدثه هذه العادة من ضرر للاعصاب . وفي فيلم « السراب » نجد ان الشخصية المريضة تحاول أن تقاوم المرض بالزواج كحل ، الا ان الآلام الناتجة من المقدمات السابقة تلازم صاحب الشخصية وتؤكد له انه مريض بالضعف العصبي ، فهو دائم الشعور بالتعب والاضطراب الشديد وعدم القدرة على التركيز الشديد والاحساس الدائم بعدم القدرة على تحمل المسؤولية ، وغالبا ما يشكو المريض من الضعف الجنسي مما يؤدي به في النهاية الى الفشل في حياته الزوجية بل والعملية ايضا .

ويعلل بعض المحللين النفسيين هذا بارجاعه الى ما يسمونه بعقدة أوديب التي تسيطر على العقل الباطن . وحين يحاول التفكير فيها فان العقل الواعي يمنعه من ذلك مما يؤدي به في النهاية الى النورستانيا أو الضعف العصبي .

اوديب والسينما :

عالجت السينما العالمية مأساة أوديب الشهيرة في اكثر من مكان وبأكثر من لغة ، وعبرت عن مأساة ذلك الشاب الذي قتل والده وتزوج بوالدته ثم فقأ عينيه في النهاية وهام على وجهه .

وتناولت بعض الافلام تلك المأساة بأسلوب علمي مدروس ومبني على اسس سليمة للتحليل النفسي استطاعت أن تبرز من خلالها ما يسمى بعقدة أوديب . . . كما تناول البعض الآخر المأساة بشكل عصري وعزلها عن تاريخها ليرينا اياها (الشخصية) تسير بيننا الآن في حياتنا الحديثة مثل فيلم بازوليني « أوديب ملكا » حيث نرى أوديب في النهاية في ملابس عصرية يحمل الناي ويمضي وسط الشباب في شوارع روما المعاصرة . . . ثم وهو يعزف الناي في منطقة تحيط بها المصانع في روما الحديثة .

وبعد فيلم بازوليني هذا اجتاحت أوروبا واميركا موجة عارمة من الافلام التي تتناول شخصية أوديب وتعلق عليها . . . وحاول البعض من صانعي تلك الافلام الالتزام بالتحليل النفسي القائم أساسا على البحث والدراسة العلمية المتخصصة ، الا ان البعض الآخر وهم الغالبية حادوا عن ذلك الاساس العلمي أو النفسي بالنسبة لعقدة أوديب ولم يأخذوا منها غير الجانب الغريزي من العقدة ، بل وصوروها كنوع من الشذوذ الجنسي السائد في أوروبا واميركا الآن بشكل واسع .

فنجد فيلما مثل « حبيبي ابني » الذي كتب له السيناريو ويليام مارشانت وجيني هول واخرجه جون نيولاند ـ يقدم حالة مرضية شاذة تتمثل في اشتهاء الام لابنها جنسيا (وهذا الابن يخوض هذه التجربة المريرة في سن يتفتح فيها على الحب وعلى الجنس وعالم الرقص والشرب والفتيات) . . ومن هنا تبلغ أزمته قمتها حين يواجه في تفتحه العاطفي والجنسي هذا ، رغبات قاسية جدا بل ومرعبة بالنسبة لاي مراهق . . وان تكون المأساة ان تجيئه هذه الرغبات من أمه . . . ان المسألة تصبح هنا ابشع من عقدة أوديب ، لان كليتمنترا هذه المرة هي التي تطارد أوديب . . . (سامي السلاموني ـ نشرة نادي السينما بالقاهرة) .

وتعتبر هذه الحالة التي عرضها الفيلم حالة مرضية شاذة ونادرة لم يتعرض لها علم النفس بأي شكل من الاشكال، ولذلك يتضح ان هذا الفيلم قد أراد به مخرجه فقط ركوب موجة التحليل النفسي بأي شكل من الاشكال التي لم يسبق علاجها وأيضا ليحقق هدفه التجاري بطرح اشياء شاذة قد تثير الانتباه والضجة حول الفيلم .

انحرافات الصغار :

وعن سيكولوجية الاحداث وانحرافاتهم تعرضت السينما أيضا لحالة هامة من حالات التحليل النفسي حين قدمت افلاما تبحث في أسباب انحراف الصغار ومكافحة الجريمة والمجرمين . . . وقد قدمت السينما العالمية العديد من تلك الاعمال الهامة ، كذلك قدمت السينما المصرية (على سبيل المثال لا الحصر) أفلاما كثيرة منها « احنا التلامذة » اخراج عاطف سالم ، « بلا رحمة » اخراج نيازي مصطفى . . . الخ .

وقد حاولت هذه الافلام ان تتناول الظروف البيئية التي يعيشها بعض الصغار وتؤدي بهم الى الضياع النفسي والجريمة في النهاية . فكل المجرمين كانوا اناسا عاديين تماما ، الا انهم وقعوا تحت تأثير ظروف نفسية خاصة أدت الى الجريمة ومطاردة المجتمع لهم .

وقد كانت السينما ـ وهي تتوجه الى انتاج هذا النوع من الافلام ـ بمثابة الرسالة الموجهة للمجتمعات بكافة قطاعاتها كجرس انذار وتحذير ، ولمواجهة أساليب التربية النفسية الخاطئة التي تؤدي دائما الى الانحراف.

الا ان السينما لم تنج ممن يستغلونها ويحولون تلك الرسالة الى شكل آخر عكسيا تماما في هدفه وتأثيره مما يحمل السينما مسؤولية الانحرافات التي يتعرض لها الاحداث والشباب من جراء مشاهدة أفلام المجون والعنف والمخدرات والتي ليست لها أي قيمة . بل هي أشياء الغرض الاساسي منها اثارة غرائز الشباب واستنفاد طاقاته وتبديدها فيما لا جدوى منه .

وفي هذه الحالة تصبح السينما اداة هدم لا علاج كما هو الحال تماما في مسألة الافلام التي تحلل الظواهر النفسية بأسلوب غير علمي ومرتجل ، وبالطبع يبدو الفرق واضحا بين طبيعة تلك الافلام النفسية. ويتساءل المرء هل هي أفلام ذات وجهة نظر ومنهج فيما تطرحه وتحلله أم انها مجرد أفلام مدعية للتحليل النفسي ؟!

ففي نهاية الستينات ، على سبيل المثال ، ظهرت مجموعة من الافلام تعرضت للصراع الذي يعيشه المواطن الاميركي وكيف يحيا في مجتمع يتميز بالنمطية والاستهلاك ... الاستهلاك لكل شيء ، حتى الذات العليا للنفس البشرية .

وظهرت هذه المجموعة من الافلام ليجيء البعض منها كنموذج واضح للتحليل العلمي والمبني على أسس وحقائق في علم النفس مدروسة بعناية كاملة من المخرج والممثلين على حد سواء ، مثل فيلم ايليا كازان الشهير « تدبير الامور » والذي استطاع فيه أن يقدم صورة شديدة الدقة والعناية لشخصية المواطن الاميركي الذي يعيش وسط الدعاية الزائفة عن كل شيء يدور حوله ووسط نمطية واستهلاك لكل شيء مما يؤدي به في النهاية الى التفكك الكامل والوصول الى أقصى حالات الفصام والتي غالبا ما تكون من النادر في مثل تلك الحالات علاج المريض الذي ينهار انهيارا تاما .

وقد استطاع كيرك دوغلاس بتمثيله لشخصية رجل الاعمال الاميركي أن يضيف الكثير لرؤية المخرج باجادته وتقمصه السليم للشخصية وفهمه التام لها وللاسس النفسية والتطورات التي تحكمها .

الا انه وفي نفس تلك الفترة في الستينات تجيء مجموعة من الافلام تحاول أن تحاكي ما قدمه كازان (مع الفارق في المستوى والرؤية طبعا) . وتقدم هذه الافلام قضاياها التي تدعيها من خلال الحالات النفسية التي تعتري مدمني المخدرات بعد تناولهم للعقارات المخدرة ومن خلال الجرائيم التي تدور على الاجسام العارية والمترنحة كانت الموضوعات الرئيسية لتلك الافلام والتي شكلت اتجاها من أخطر الاتجاهات السينمائية الهدامة .

وبتطور الحياة ، وبالتالي مشاكل الانسان ونفسيته البشرية ، تطورت وسائل التعبير لتواكب ذلك التطور.. فظهرت أفلام تتعرض لمشكلات تستجد دائما وباستمرار ... فمثلا ظهرت أفلام عن التحليل النفسي لشخصية المجرم وكيفية تحوله ، وبحث أسباب ارتباط العنف والجنس بالتطور الحضاري والتكنولوجي وكذلك ارتفاع نسبة الامراض النفسية في المدن الكبرى ... وظهرت بعض الافلام التي تتناول سيكولوجية من تقمصتهم الارواح الشريرة وكيف تتم السيطرة على تلك الحالات . ولعل من أشهر تلك الافلام فيلم وليم فريدكن الشهير « طارد الارواح الشريرة » والذي يتعرض فيه للتغيرات النفسية والجسدية لفتاة تقمصتها روح شيطانية شريرة .

كذلك بحثت السينما في فرع آخر من الفروع الهامة لم يكن ذي بال من قبل ألا وهو البحث في سيكولوجية كبار السن أو المسنين وما هو دورهم في المجتمع بعد أن أصبحوا غير قادرين على العطاء مثلما كانوا في شبابهم .

ولان اميركا هي أكبر بلاد العالم معاناة لتلك المشكلة ، نجد ان السينما الاميركية اكثر من تعرض لذلك ، وقدمت الكثير من الافلام التي اهتم البعض منها بالتحليل والبعض الآخر بالعرض فقط ، وان ظهر في كلتا الحالتين عدم الوصول الى قرار في مصير هؤلاء الشيوخ المسنين الذين أصبحوا يشكلون ظاهرة تتفاقم تدريجيا مع ازدياد معدل السرعة في المجتمعات الحديثة والتكنولوجية .

وعلى هذه الوتيرة تسير السينما في طريق المتابعة لكل ما تختلج به نفس الانسان ، وتقوم بدورها الذي خلقته طبيعة الفن فيها سواء بعرض المشكلات النفسية أو على مستوى المعالجة وتقديم الحلول ... أو كجرس انذار للتنبيه ورسالة موجهة تعرف هدفها تمام المعرفة .

القاهرة

أهم المصادر :

١ ـ السينما والمسرح وأمراض النفس ـ تاليف : د. انيس فهمي اقلاديوس .

٢ ـ المجمل في التحليل النفسي ـ تاليف : دانيال لاجاش . ترجمة : د. مصطفى زيوار .

٣ ـ أسرار النفس ـ تاليف : سلامة موسى .